حوار مع أدونيس حول مجلة «شعر» وقصيدة النثر

أدونيس

أسئلة: يسري الأمير

البدايات

هناك رأي يُطْرح بقوّة، أساسُه أنّ فكرة مجلة شعر كانت مشروعًا للحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وأنّكَ ويوسف الخال تفرّدتما بالمشروع واستقللتُما بالمجلّة. فما تعليقُك على ذلك؟

أصحابُ هذا الرأي مخطئون كليّاً. ففكرة المجلّة مبادرة شخصيَّة من يوسف الخال، وكان قد أصبح خارج الحزب. أمّا من جهتي فقد تعاونتُ معه، باستقلالٍ كاملٍ عن الحزب، وكنتُ لا أزال عضوًا عاملاً فيه. وقد حاولتْ مرّةً قيادةُ الحزب، في شخص رئيسه آنذاك الأستاذ الدكتور عبد اللَّه سعادة، أن تثنيني عن ذلك، فلم أَسْتجب.

في مطبخ مجلة شعر كنتَ أنتَ ويوسف الخال أولاً، ثم أنتَ بشكل أساسيّ. والحزبُ وقف ضدّ مشروع المجلة، لكنَّ معظم حضور «ندوة خميس شعر» كانوا من أعضائه. فكيف تعلّل ذلك؟ ألم يعنِ ذلك انتماءً سياسيّاً لمجلة كانت تحاول جـاهـدَها أن تتنصّل منه مقابل المجلات الإيديولوجيَّة الأدبيَّة الأخرى؟

في هذا القول كذلك جانبٌ من الخطإ. فلم يكن «معظمُ حضور ندوة خميس **شعر** من أعضاء الحزب،» وإنّما كان بين الحضور المختلفي الانتماءات عددٌ يَنْتمون إليه. ولم يكن دافعُهم سياسيّاً أو حزبيّاً؛ بل كان حبُّ المعرفة، والتطلُّعُ إلى الجديد، والرَّغبةُ في مواكبة الحركة الأدبيَّة ـ الثقافيَّة، في أساس هذا الحضور.

وكنّا، يوسف الخال وأنا، نؤكّد باستمرارٍ على استقلاليَّة المجلّة، استقلالاً تامّاً، عن الأحزاب والإيديولوجيّات. وقد رَبَطْنا النظرَ بالممارسة، فَنَشرت المجلّةُ نصوصًا شعريَّة ونقديَّة يتأرجح أصحابُها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، مشدِّدين دائمًا على مُسْتوى النصّ، فنيّاً وفكريّاً، في معزلٍ كاملٍ عن انتماءِ صاحبه، السياسيِّ أو الإيديولوجيِّ.

بالعودة إلى انطلاقة شعر، كيف كان اجتماعُ أدونيس ويوسف الخال؟ نحن إزاء اختلافات جذريَّة في المنطلقات: أنت ملتزم عقائديّ قوميّ ترى العروبةَ وجهًا حقيقيّاً لسوريا الطبيعيَّة، فيما يوسف الخال مطرود من الحزب بسبب آرائه «الشخصانيَّة» و«الوجوديَّة،» ومنتمٍ إلى لبنان وجبله، ومرتبطٌ بشارل مالك وفكره. فهل كان التلاقي قائمًا على إزالة التناقضات وإلغائها، أم تأجيلها، أم التغاضي عنها؟ وهل كان هذا الخلاف أساسَ تردُّد التحرير الفعليّ للمجلة بينكما، ومن ثمّ غيابك عنها طوال سنة ١٩٦٤؟

تأسّس لقاؤنا على قناعةٍ مشتركة: الفصل بين الشعر والفنّ بعامّة من جهة، والإيديولوجيا من جهة ثانية وبخاصةٍ في وَجْهها السياسيّ ـ المؤسّسيّ. كنّا نَعْتقد أنّ القضايا الكبرى يجب أن يواكِبَها فنٌّ كبير. وانطلاقًا من ذلك كنّا نقول: السياسة هي التي يجب أن تكون جزءًا من رؤية ثقافيَّة خلاّقة، وتابعةً لهذه الرؤية. فالسيّاسة هي خادمةُ الفنّ، لا العكس. وفي هذا الإطار جاهَرْنا بعدائنا الفنيّ لحركات الالتزام في الشعر آنذاك، دون أن نتخلّى عن وقوفنا إلى جانب القضايا الوطنيَّة والقوميَّة والتحرُّريَّة، وعن دعمنا الكامل للنضال من أجلها. وقد أَثبتَت التجربة، بشكل ساطع، أنّ هذه الحركات، منذ نشوئها في خمسينيَّات القرن العشرين المنصرم، لم تُنْتِجْ، غالبًا، إلاّ الشعرَ الرديء.

هكذا كنّا، يوسف الخال وأنا، متّفقين، شعريّاً، منذ البداية: له «أفكاره،» ولي «أفكاري.» أمّا الشعر فهو، كما يقول الأصمعيّ، «نَكَدٌ بابُهُ الشرّ، فإذا دخل في الخير فَسُدَ.» و«الخير» في نظر الأصمعيّ، كان يتمثّل في «الدين»؛ أمّا بالنسبة إلينا، فقد تمثّل في «الإيديولوجيا.»

وإذنْ لا «تناقضات» ولا «إلغاء» ولا «تأجيل» ولا «تغاضٍ.» كان هناك، منذ البداية، وضوحٌ كاملٌ يَنْهض على قناعةٍ مشتركة.

ومرّةً ثانيةً، أكرِّر أنّ الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، الحزب ـ المؤسّسة، لم يكن راضيًا. على العَكْس، كان غاضبًا عليَّ، طبعًا.

غير أنّنا، في الوقت نفسه، لقينا دعمًا معنويّاً مهمّاً وتعاطفًا قويّاً من أشخاصٍ كثيرين يدورون في الفلك الثقافيّ الذي أَطْلقه الحزبُ، أو يَنْتمون إليه. ولقينا كذلك هذا الدّعمَ وهذا التّعاطفَ من أشخاصٍ آخرين كثيرين، يُعادون الحزبَ، فكريّاً وسياسيّاً. وأجد في هذا دلالةً مهمّة هي أنّ رأينا الذي يَفْصل بين الفنّ والإيديولوجيا كان يجد قبولاً وتأييدًا لدى أطرافٍ متناقضةٍ في الانتماءِ، والفكرِ، والرأي.

المجلة

هل اعتبرتْ شعر **نفسَها صاحبةَ الفضل في ظهور قصيدة النثر وتبلورها؟ وما هي الأسس النظريَّة التي اعتمدتْها في دعوتها إلى هذه القصيدة؟ وما هو أثر اعتماد هذه الدعوة على مرجعيَّة شعريَّة غربيَّة؟ وما هي المعايير التي استُخْدمت في تقويم القصائد النثريَّة؟**

لم «تَبْتكر» مجلّة **شعر** قصيدةَ النثر، وإنّما ابتكرتْ مُناخَها النظريّ. وكانت، تطبيقيّاً، «غرفةَ» العناية بها، و«سريرَها،» والإطارَ ـ الأساسَ الذي انطلقتْ فيه.

وقد أَفَدْنا أساسيّاً من مفهومات هذه القصيدة كما تجلّت في اللُّغة الفرنسيَّة على الأخصّ. وهذا ما أشرتُ إليه، بشكلٍ جليّ، في مقالتي الأولى التي ظهرتْ في مجلّة **شعر** (عدد ١٤، ص ٧٥، ربيع ١٩٦٠)، بعنوان: «في قصيدة النثر،» وهو ما تَقْتضيه تقاليدُ الاقتباس والتفاعل الفكريَّيْن. ومع ذلك، لايزال حتى الآن يتنافس المتنافسون في اتّهامنا بـ «السَّرقة» ـ الأمر الذي يؤكّد حاجةَ هؤلاء المتنافسين إلى المعرفة الصّادقة أوّلاً، وإلى أخلاقيَّة النّقد ثانيًا.

وقد تبنَّيْنا ما اصطلحنا على تسميته بـ «قصيدة النثر» انطلاقًا من ثلاثة مبادئ (مستقلّةٍ عن مفهوماتها الفرنسيَّة) أُوجزها كما يلي:

الأوّل، هو أنّ شعريَّة اللُّغة العربيَّة لا تَسْتنفدها الأوزانُ، على الرُّغم من كمالها وغِناها، فنيّاً؛ وأنّ هذه اللُّغة تَزْخر بإمكاناتٍ تعبيريَّةٍ، طرائقَ وتراكيبَ، يتعذّر أن نضعَ لها حدّاً نهائيّاً تقف عنده ـ فهي لغةٌ مفتوحةٌ على اللاّنهاية.

الثاني، هو ابتكار طرقٍ وأشكالٍ أخرى للتعبير الشعريّ، تواكب الطُّرقَ والأشكالَ القائمة على الوزن، وتؤاخيها، بما يُغني اللُّغةَ الشعريَّةَ العربيَّة، وينوِّعها، ويعدِّدها. وفي هذا إثراءٌ للمخيّلة وللذّائقة أيضًا. فقصيدة النثر، كما تبنَّيْناها، لم تكن ضدّاً لقصيدة الوزن، ولم تكن إلغاءً أو نفيًا لها، وإنّما كانت تجريبًا جديدًا في حَقْلِ اللُّغة، إلى جانب الوَزْن. والدّليلُ هو أنّني، فيما كنّا نَنْشر نصوصًا نثريَّة، كنتُ أُعِدّ **ديوان الشعر العربيّ** بدءًا ممّا قبل الإسلام، وكنّا نَنْشر مختاراتٍ منه في المجلّة.

الثالث، هو الرَّغبة العميقة في جَعْل اللُّغة العربيَّة مفتوحةً على جميع التّجارب الشعريَّة في العالم، وفي وَضْعِها، إبداعيّاً، على خريطة الإبداع الكونيّ، بخصوصيّتها ـ لكنْ في الوقت نفسه، بانفتاحها ولانهائيّتها: تفاعلاً، ومُقابَسَةً، وحوارًا.

شنَّت مجلةُ الآداب **هجومًا عنيفًا على** شعر**، وقد كانت خلفيَّةُ هذا الهجوم سياسيَّةً أكثرَ منها أدبيَّة. فهل ترى أنَّ دفاع** شعر **عن تجربتها اتَّسم بالطابع الأدبيّ، أم أنَّه انساق وراء الموقف السياسيّ بدوره؟**

كان هجومًا ظالمًا، لأنَّه لم يَقْتصر على المسألة الشعريَّة أو الأدبيَّة، بل تجاوزها إلى التجريح الشخصيّ، وإلى الاتِّهام بالعمالة والتخريب، وما شابه. وكان، ضمن هذا الحدّ، غيرَ لائقٍ بمجلّةٍ في مستوى الآداب، ومستوى المشروع الثقافيّ السياسيّ الذي تتبنّاه. ولقد بقيتْ مجلّةُ **شعر** في دفاعها حريصةً على احترام الإنسان، ولم تجرِّحْ أحدًا، ولم تتكلّم بلغةِ الاتِّهام.

في وقت متأخّر خصَّصتْ شعر **عددًا لقضية الثورة الجزائريَّة، كما أنَّها نشرتْ قصائدَ لشعراء الأرض المحتلّة.**

هل كـان ذلك تراجـعًـا عن موقف، أم مراعـاةً لمزاج سـائد، أم نوعًا من الدفاع ضدّ التهم الموجّهة إليها؟

لم يكن ذلك «تراجعًا» ولا «مراعاةً» ولا «دفاعًا،» وإنَّما كان شكلاً من أشكال التعبير عن مساندتنا لقضية الجزائر، ودَعْم الثورة الجزائريَّة، من جهة... واحتجاجًا على الاستعمار الفَرنسيّ، واستنكارًا لممارساته، ورفضًا له، من جهة ثانية.

وكانت نصوصُ العدد، بالنسبة إلينا، بمثابة «شهادات» وُضِعتْ في شكلٍ شعريّ. كنّا في هذا العدد نهتمّ بتوثيق الموقفِ، والإعلانِ عنه، أكثرَ مما نهتمّ بفنيَّةِ الشّعر أو بشعريَّته.

ما كان موقفُك من جدار اللُّغة التي أَعْلن يوسف الخال عن عدم القدرة على تخطِّيه؟

كنّا على طَرَفيْ نقيضٍ في هذه المسألة، دون أن تختلَّ صداقتُنا. كنتُ أعتقد ولاأزال أنّ المشكلة ليست في اللُّغة بحدِّ ذاتها، وإنَّما هي في الإنسان الذي يَسْتخدمها. هذا دون أن أُنْكر أنَّ لغتَنا العربيَّة يقتلُها أبناؤها، يوميّاً، بطريقةٍ أو أخرى، بدءًا من طُرُقِ تعليمها في المدارس والجامعات، وانتهاءً بأنواع الرّقابة المفروضة على الكتابة بها. واليوم، قلَّما نَجِدُ بين العرب مَنْ يتقن هذه اللُّغة، حتى بين خطباء الجوامع ورجالِ الدين الذين يُفْترض بهم أن يُتْقنوها قبل غيرهم.

اللُّغة العربيَّة، بالنسبة إليَّ، هي كَيْنونَةُ العرب وهويّتهم. إضافةً إلى أنَّها، بالنسبة إليّ كذلك، لغةٌ شعريَّةٌ قد لا تُضاهيها في شعريّتها أيَّةُ لغةٍ في العالم. لكنَّها، كغيرها من اللُّغات، تضيق أو تتَّسع بحسب العقل الذي يَسْتخدمها: إنْ كان ضيِّقًا ضاقت، وإنْ كان واسعًا اتَّسعَتْ. والفاجعة هي أنَّ العقل المهيمِن، دينًا وسياسةً وكتابةً، عَقْلٌ ضيِّقٌ بحيث يكادُ أن يتحوَّل إلى قَبْر.

وإذن ليس للُّغة في ذاتها «جدار» سواء كانت عربيَّةً، أو غير عربيَّة. استطرادًا، فُهِمَ موقفُ يوسف الخال خطأً. ومن الحقّ، في هذه المناسبة، إنصافُه ـ مع أنَّني أظلّ مختلفًا معه في ما يَنْتهي إليه.

تَخْتلف دعوةُ يوسف الخال عن دعوة الأشخاص القائلين بالعاميَّة لكي تحلّ محلَّ الفصحى. وتَخْتلف جذرياً، على الأخصّ، عن دعوة سعيد عقل. وقوام دعوة الخال هو استخدامُ الفصحى ذاتها، لكنْ دون استخدام الحركات... إضافةً إلى بعض التفاصيل المتعلّقة بصيغ المثنَّى، وبالأسماء الموصولة وأسماء الإشارة؛ وهي إجمالاً ثانوية. فهو، إذن، لا يَدْعو إلى العاميَّة، وإنَّما يَدْعو إلى كتابة الفُصحى نفسها، كما **نَنْطقها** جميعًا في حياتنا اليوميَّة وفي أحاديثنا.

برأيكَ، ما الفرق بين توقُّف شعر الأول وتوقُّفها الثاني؟ وهل ترى أن توقُّف المجلة كان ضرورياً في الحالَيْن؟

الفرق هو أنَّ الأوّل كان نتيجةَ اختلافٍ حول ماهيَّة الدَّفعة الخلاّقة الجديدة التي يجب أن نعطيها للمجلّة في أفقٍ معرفيّ وفنيّ وثقافيّ أكثر تنوُّعًا ورحابةً، وأنَّ الثاني كان نتيجةً لانْسداد الأفق ـ ذاتياً وموضوعياً. وكان من الأفضل لهويّة المجلّة أَلاَ يُسْتأنف صدورُها، لأنَّ هذا الاستئناف كان نوعًا من العناد لا أكثر، ولم يُضِفْ أيّ شيءٍ جوهريّ.

ولئن كان تأسيسُ مجلةٍ للإبداع في مختلف الميادين ظاهرةً مهمّةً، فقد يكون إيقافُها، إذا كان أفقُ الإبداع أمامها مغلقًا، ظاهرةً مهمّةً كذلك. فالمجلّة حركيَّة، وتجدُّد، ورسالة ـ دون تكرار، أو دون دورانٍ مُغلَقٍ على المقولات ذاتها والأشكالِ ذاتها. وإلاّ، تفقد معناها، وتستمرّ أشبهَ بالجثَّة، ويكون موتُها ضرورياً.

بعد أكثر من أربعين سنة، ما زالت مجلة شعر تثير النقاش والجدل. فكيف تقوّم الدراسات الكثيفة حول تجربتها؟ وهل تَعْتبر أنَّها قد أُنصِفتْ؟ وهل تُراجَعُ بوصفها أدبًا أم تاريخًا؟

كلاّ، لم تُنْصَفِ المجلّةُ حتى الآن. ويُمْكنني القول إنَّ أطروحاتها الأساسيَّة المتّصلة خصوصًا بمعنى الشعر لم تُفْهم تمامًا حتى مِنْ بعض الذين عملوا فيها. بل قُلّصتْ عند بعضهم في مجرّد إهمال

«الوزن» (وهو ليس إهمالَ العارفِ بل الجاهل)، أيْ في مجرّد الكتابة بالنّثْر. وهذا، على المستوى الإبداعيّ، وفي حدّ ذاته، أمرٌ ثانويّ.

غير أنّها تظلّ، على الرُّغم من كلّ شيء، الشرارةَ النظريَّةَ الأولى التي أضاءت عالَمَ الكتابة الشعريَّة العربيَّة الجديدة، والحاملةَ الأولى لرايتها. وفي هذه المستوى لا أُبالغ إنْ قلتُ: يُؤرَّخ للشعر العربيّ في القرن العشرين بمفصلٍ حاسمٍ: قبل مجلّة **شعر** وبعدها!

ما بعد شعر

كيف تصف المرحلة التي مررتَ بها ما بين توقُّف شعر **وصدور مجلة** مواقف**؟ وهل كانت مشاركتكَ في عدد** الآداب **سنة ١٩٦٦ ذات معنى خاصّ عندك، أمْ أنّها جاءت عَرَضًا؟**

لستُ مِنَ الذين «يقاطِعون» المجلاّت الأدبيَّة، بحججٍ سياسيَّة أو إيديولوجيَّة أو غيرها، كما تَفْعل «القبائلُ» ـ وكما تمارسُ ذلك عقليّاتٌ «سِحْريَّة.» وإذا كنتُ نشرتُ في الآداب، أو لم أنشرْ، فذلك عائدٌ إلى ظروفٍ شخصيَّةٍ خاصّةٍ بي، وليس بمجلّة الآداب نفسها. ولئن كنتُ أتحفَّظ إزاء الآداب، فليس ذلك بسببٍ من اتِّجاهها السياسيّ أو الإيديولوجيّ، وإنّما بسببٍ من مستوى المادة التي تنشرها، وبخاصّةٍ الشعريَّة. وكنتُ، غالبًا، أَسْتغربُ كيف تَرْفض المجلةُ أن تَنْشر «قصيدةَ نثر،» وتنشرَ في الوقت نفسه قصائد وَزْنٍ لا يَعْرف أصحابُها المبادئَ الأولى لعَرُوض الشعر العربيّ، قصائدَ مليئة بالأخطاء العروضيَّة.*

ذكرتَ في مكان ما أنّ مجلّة مواقف **جاءت لتسدّ نقصًا عجزتْ مجلّةُ** شعر **عن سدّه. فما هو ذلك النقص؟ وإلى أيّ حدّ نجحتْ في سدّه؟ وهل ثمّة حاجةُ اليومَ إلى استكمال ما عجزتْ** شعر **و**مواقف **معًا عنه؟**

نعم، هناك «حاجة إلى استكمال ما عجزتْ **شعر** و**مواقف**» وما عجزتْ عنه الآداب كذلك، ومختلفُ المجلاّت العربيَّة الأخرى التي تَرْقى إلى مستواها. وتتمثَّل هذه الحاجةُ، كما أرى، في الخروج كلّياً عن السيّاق الفكريّ والشعريّ الذي رَسَمَه لنا ذلك العَصْرُ «العاجز،» العَصْر الذي سمَّيناه، خطأً، بـ «عَصْر النَّهضة.» وما لم يتمّ هذا الخروج ستظلّ كتاباتُنا، الفكريَّةُ والشعريَّةُ، نوعًا من إعادة الإنتاج: اجترارًا وتكرارًا.

هكذا يبدو لي أنّ هذا الخروج ضرورةٌ مُطْلقة. أمّا كيف نخرجُ، وما الأفقُ الذي نَفْتحه، وما أُسُسُه وأبعادُه، فذلك أمرٌ آخر وبحثٌ آخر.

بيروت

أدونيس

واحد من كبار الشعراء والنقّاد العرب. من المسهمين الأساسيِّين في مجلة **شعر**، تحريرًا وكتابة. أسّس مجلة **مواقف**. ويعيش حالياً في ألمانيا.

* ـ يهمّ الآداب، من منطلق احترامها البالغ وصداقتها القديمة والمتجدِّدة لأدونيس، أن تشير إلى أنّ المجلة نشرتْ عددًا كبيرًا من قصائد النثر (وإنْ تحفَّظَ مؤسِّسُها الأوّل عن هذه التسمية)، وفي سنواتها الأولى أيضًا. ففي العدد السادس من سنتها الأولى (١٩٥٣) مثلاً نشرتْ افتتاحيّة (!) هي قصيدةُ نثرٍ لجبرا إبراهيم جبرا عنوانُها «هكذا تمرّ بنا الأعوام» وهي منضَّدة على شكل قصيدة. وفي السنة الأولى أيضًا نَشرَتْ ما بات يُعتبر من قصائد النثر الأولى لمحمد الماغوط، إحداها بعنوان «النبيذ المرّ» (العدد الثامن) والأخرى (العدد العاشر) بعنوان «غادة يافا.» وأمّا في التسعينيّات، وقبل ذلك وبعده، فقد نَشَرَت الآداب عشرات من قصائد النثر، أو من قصائد يختلط فيها شعرُ التفعيلة بالنثر، نَذْكر منها ما كتبه عز الدين المناصرة، ووفاء العمراني، وإدريس عيسى، ونجمة إدريس، وعالية شعيب، وبشير القمري، وعشرات آخرون.
وأمّا القصائد التي نشرَتْها الآداب و«لا يَعْرف أصحابُها المبادئَ الأولى لعروض الشعر العربيّ...» فقد كنّا نتمنى على الصديق العزيز أدونيس أن يعطينا أمثلةً عنها.